

فتحهم عرباً خالصاً. وانك لتقرأ العجمة في كلام ابن كمال باشا وكاتب جلبي وطاشكو بريلي وغيرهم من الأتراك الذين عانوا القلم العربي وعدوا في المصنفين ما لا تقرأوه في كلام الراغب الأصفهاني وأبي بكر الخوارزمي وحجة الإسلام الغزالي بل إن هؤلاء على منشأهم الفارسي كانوا أئمة الإنشاء العربي.

إذا تعلم أبنائنا اليوم على الطريقة التركية لا يلبثون أن يجيئوا أتراكاً ويتقنوا التركية كأرقى أبنائها وبذلك لا يخدمون أبناء لغتهم أدنى خدمة وقد رأينا معظم الذين تعلموا من أبناء سورية والعراق في المدارس الرسمية لا يحسنون التكلم بالعربية العامية فضلاً عن أن يكتسبوا سطين صحيحين بلغتهم بل ربما رأيتهم يمزجون المصطلحات التركية وبعض الألفاظ التركية بينما هم يكلمونك بالعربية فكأن شأنهم في هذا شأن أكثر التوانسة والجزائريين من سكان المدن يتكلمون بعربية تكاد تكون أقرب إلى الإفريقية لما خالطها من الألفاظ الإفريقية والإسبانية والطلانية.

وقد رأى بعض العقلاء أن أحسن حل لمسألة اللغة العربية في المدارس الرسمية وسلمه عاقبة على أجيال الدولة المخلفة هو أن يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وأن تجعل العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لا يقع حيف على العرب وهم نصف الدولة أو يزيدون ولغتهم أفضل لغات سائر العناصر العثمانية. والمقبل كليل بحل هذه المعضلة العلمية.

ضراء العلماء

يلد الإصلاح بادئ بدء غريباً لا يأنس به إلا ذوو الاستعداد الفطري للمبادئ العالية وأبناء العلم والتهديب من رجال الأمة والبقية منهم يناهضونه إما بدافع جهلهم وتعصيمهم أو لعدم انطباقه مع ما يترعون إليه من التقاليد التي وجدوا عليها آباءهم

ولهذا تعترضه قبل أن يدرج من عشه قوتان متناقضتان: الواحدة تسعى لإغائه والأخرى تعمل على تلاشه ويساعد الثانية في الغالب مال وخول في ملك ضخيم البنيان وجاء منبسط الظلال . . .

بين هاتين القوتين تشهر حرب شعواء يضطرب لها فلك الإصلاح ولا بد أن تجلي وقد أزهق الحق الباطل لأن القوة الحقيقية بجانبه. ولقوة الحق حركة كبرى في ميدان تنازع البقاء.

إلا وأن أنصار الباطل كانوا وما زالوا في كل عصرٍ ومصر يوقظون الفتنة ويضرمون جذوة الثورة فيقومون بدعوى الغيرة على الدين مرة وخدمة النفع العام تارة أخرى وما يريدون بذلك كما يشهد الحق إلا منافعهم الشخصية فهي قبلة آمالهم التي يولون شطرها وكعبة أميالهم التي يسوقون نحوها مطايا همهم وهمهم.

وليس أضر شيئاً على العلم والدين من هؤلاء فمثلهم كسد سوق العلم وراجت بضاعة الجهل المزجاة وهم بما يخلقونه من الأوهام مثلوا الدين بأقبح صورة مشوهة يفر منها الناظر فرار السليم من الأجرى وفسحوا للدين مجالاً واسعاً أمام الأغيار فأخذوا يسلقونه بالسنة حداد ويتزلونه في غير الموزلة التي وضعها السلف الصالح أيام كانوا على بيضاء نقية لا يضرهم من خالفهم إذا كانوا هم المهتمين.

نيت الأمم الإسلامية جمعاء بمثل هؤلاء منذ ثلاثة عشر قرناً أو ما يزيد. بيد أنه مع وجود هذه الطغمة بين ظهرانيهم وارتفاع جليتهم وضوضائهم وعملهم على إطفاء شعاع الأمانى الذهبية في مهب تلك العواصف لم تعدم رجالاً توفرت على الأخذ بناصر الحق وسلبت قرارها رغبة فيشد أزره ممن تحضروا للعلم الخالص واغترفوا من معينه وشلا فكانت القوة بجانبهم ينافحون بها أعداء العلم الألداء ويكافحونهم والغلبة لهم

وان تألبت عليهم الجموع الكثيفة وتحلقت أمامهم الصفوف كالبيان المرصوص من تجمعهم جامعة الجهل تحت لواء الحمد اللئيم.

شهد شيخنا التاريخ منذ نشأ الفكر البشري هذه الأعمال البربرية ولم تنزل صفحاته ندية بعد فلم يحف ما أريق من الدماء في سبيل نصره الحق ولم يتجر ما أذرف من الدموع الصافية المصدر والمورد على تلك العقول الرصينة التي بينما ترصد فضاء السماء الفصح إذا بها تفحص أعماق هذه الأرض وتجتهد في استكناه أسرار الحياة المطوية طي كتل تلك الطبقات الصماء. وها هو قد حشد في صدره ألوفاً مؤلفة من ذهبوا ضحية الجهل والحمد ما لو جمع وأفرد بمؤلفات خاصة لأخرجت للناس مجلدات ضخمة في محكمة التفتيش الإسلامية الكبرى.

وليس بالزرر القليل ما نال الأئمة المصلحين من النكبات التي يسود لها وجه الإنسانية فكم كفر من هو أشد تمسكاً بدين الله وأتوا على من هو أعظم اعتصاماً بحبله المتين وحكم بالزندقة على من كان يحارب الدهريين وضلل من كان يجاهد في سبيل الشرك واضطهد من كان يعمل فكرته للاجتهد والعمل في كتاب الله وسنة رسوله.

ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد فلم يتخطوا دائرة الإنسانية بتمثيلهم عباد الله المصلحين أقبح تمثيل وضرهم بالأسواط حتى تشل الأطراف أو تعتل إحدى الأعضاء فتفقد وظيفتها وسلخهم جلودهم وهم أحياء مما لم يعهد نظيره إلا بين ظهراي الأمم العريقة في التوحش والعجبة.

وأمامي الآن كثير من أمثال تلك الحوادث في بطون عدة من التواريخ التي تضم تراجم مشاهير المشاركة والمغاربة آبي على شيء منها مقتصراً على رجال الفريق الأول ممن ذاقوا الأرم ولقوا من معاصريهم إلا لاقى لقاءً بث فكرة إصلاحية أو القيام بمشروع

جديد ليعلم أن التاريخ هو الخشر الذي ينسل إليه الناس من كل حذب وأنه لا يفلت أحداً دون أن يناقشه الحساب:

هذا مالك بن أنس سعي به إلى جعفر بن علي بن عم أبي جعفر المنصور فدعا به وجرده وضربه سبعين سوطاً ومدت يده حتى انخلع كتفاه وذلك جزاء قوله الحق حين سئل عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقولهم له: إن في أعناقنا مبايعة أبي جعفر فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس علي مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد فسمي به فضرب لذلك.

قال صاحب الفلاحة: ثم لم يزل بعد في علو ورفعة كأنما تلك السياط حلياً تحلى بها. وهذا أبو حنيفة النعمان الفقيه الكوفي ضربه يزيد بن عمر بن هبيرة القرظي وكان أمير العراقيين مائة سوط وعشرة أسواط وكل يوم عشرة أسواط أيضاً وذلك لما أراداه لقضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى وبقي على الامتناع وسجنه فتوفي في السجن في أحد القولين. وقيل: أن سب سجنه الأبدي ما ذكره الزمخشري وهو من كبار الحنفية في تفسير آية: لا ينال عهدي الظالمين إن أبا حنيفة رحمه الله كان يفتي سراً بوجود نصره زيد بن علي رضوان الله عليهما وحمل المال إليه والخروج معه على اللص المتغلب المسمى بالإمام والخليفة كالدوانيقي وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل فقال: ليتني مكان ابنك وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على بناء أجره لما فعلت أم. وحينئذ بعلم الباحث المدقق أن سب سجنه أمر سياسي.

ومثله أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي أمر المعتصم بضربه فأخذ وجيء بالعقابين والسياط وضربه ضرباً مبرحاً حتى أغمى عليه وغاب عقله ثم أمر

باطلاقه إلى أهله فتقل وهو لا يشعر وذلك أنه أبي أن يقول خلاف ما يعلم أو يعتقد حين أجلسه المعتصم ودعاه إلى القول بخلق القرآن فامتنع وقال للمعتصم ما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن القرآن علم الله ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر. فناظره أحمد بن أبي دؤاد وغيره وأنكروا عليه الآثار التي أوردوها وقالوا للمعتصم هذا كفر وأكفرنا وقال له إسحق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفين فعند ذلك همي واشتد غضبه وكان ما كان.

وكذلك يوسف بن يحيى البويطي صاحب الإمام الشافعي كان الشافعي يسأل عن الشيء فيحيل عليه فإذا أجاب قال: هو كما أجاب وقال عنه الشافعي هو لساني حمل إلى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر وفي عنقه غل وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده.

وضم إلى هؤلاء الأئمة من أساطين العلم والعمل من لم يرفعوا الأعمال المفسدين رأساً ولم يقيموا لها وزناً وليس ما أصابهم من المصائب بأقل مما نال الأغمار من معاصري الأخير أن تألبوا عليه وكادوه واستظهروا عليه بالأمراء فأحرقوا كتبه الثمينة ومصنفاته وفي ذلك قال:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القطراس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... ويترن أن أنزل ويدفن في قبوري إلخ.

وانك لترى العجب العجاب حينما تأتي على تراجم المشاهير وما تجد في غضونها من الخن والإحن التي قصد من إيقاعها بهم غمط فضلهم والخط من كرامتهم ووضعهم أمام سيل شهرتهم الجارف سوراً من الجمود أركانه العصب الأعمى ودعائمه الجهل المطبق.

ولقد أفضت ضراء العلماء والوقية بهم إلى الطعن بالمذاهب وقيام طائفة على أخرى كلما لاح لها من الفرصة بارق. ومن ذلك قيام الأكاابر على محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين الملقب بلقب أبيه جمال الإسلام وخدمهم له فإنهم خصموه واستظهروا بالسلطان عليه وعلى أصحابه وصارت الأشعرية مقصودين بالإهانة والمنع عن الوعظ والتدريس وعزلوا من خطابة الجامع وتبع من الحنفية طائفة أشربوا في قلوبهم الاعتزال والتشيع فخلعوا إلى ولي الأمر الإزراء بذهب الشافعي عموماً وبالأشعرية خصوصاً قال السبكي: وهذه هي الفتنة التي طار شررها وطال ضررها وعظم خطبها وقام في أهل السنة خطبها فإن هذا الأمر أدى إلى التصريح يلعن أهل السنة في الجمع وتوظيف مبهم على المنابر وضار لأبي الحسن الأشعري بما أسوة بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه واسعلى أولئك في الجامع فقام أبو سهل في نصر السنة قياماً مؤزراً إلخ.

ومما يجدر ذكره في هذا الباب من المتأخرين الشيخ عبد الغني النابلسي فإن أهل الشام تألبوا عليه ووصموه بوصمات لم تكن من الشيخ رحمه الله في شيء. وما د عأولئك الرعاع إلا حصدهم لمزلة الشيخ حتى اضطره إلى مفادرة دمشق والسكنى بالصالحية حيث دفن ثمة. وفي ذلك يقول من قصيدة مطلعها:

يا من تكلم فينا بالذي فيه ... وقعت في كف ضرغام وفي فيه

إلى أن قال:

فقد جحدت الغيور الحق ملته ... هيهات أنك تجو من أياديه
وان جهلت فما بالكفر يعذر ذو ... جهل لذي الشرع والشيطان يطغيه
دم في ظنونك مفترناً فسوف ترى ... من الذي منه قبح الفعل يرديه
ولا تقل أي جاهٍ للضعيف يرى ... فإن للبيت رباً سوف يحميه

يا مستيحين أعراضاً محرمةً ... بسوء ظن وتليس وتويه
 أمكذا ملة الإسلام تأمركم؟ ... أم قد سلكتم عن الإسلام في تيه؟
 تباً لكم ولمن قد عاد يتبعكم ... والعبد مولاه في الأعداء يكفيه

وبعد فإن التاريخ يعيد نفسه والحوادث لا تفتأ تتعاقب على مر الأيام وإن الحال صورة
 من الماضي وإن طراً عليه من مؤثرات التجديد ما أدخله في طور جديد ولا يخلو كل
 عصر من شرذمة نفاق واختلاق حتى في هذا العصر يعترضون كل عمل نافع يقوم به
 المصلحون في مصر وسورية والعراق ويعينهم فيما يطلبون تلکم الرعاغ الذين هم
 أتباع كل ناعق.

ألا فليعلم أولئك الأغرار أن موت المصلحين في سبيل نصره الحق بعث ونثور وأن
 رمي الآخريين بالكفر والزندقة هو حياة لهم وذكرى. ولقد كانت لأولئك الجهلة
 الأعمار حياة مادية ولكن كانوا يتجرعون منها الحنظل ويموتون في كل يوم مراراً.
 وكانت لهؤلاء العلماء المصلحين شعلة حياة مادية أطفأها الحسد فحلت محلها حياة
 أدبية مملوءة ضياءً ونوراً! دمشق —

صلاح الدين القاسمي

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويوضع بشرف القائمين به ووضاعتهم وكل علم يشرف ويوضع
 على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه وغاية تكون وراءه وصناعة الموسيقى هي من
 إمارات الظرف تعدُّ عند الأمم الحديثة التحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعهداها
 العرب إبان حضاراتهم من الكماليات.